الكتابة اللسانية العربية الحديثة
قراءة في المنهج

د. علي صالحي
جامعة أمحمد بوقرة بومرداس

تاريخ الإرسال: 2020-12-14	تاريخ القبول: 2020-12-21

الملخص:

تعد إشكالية موضوع البحث اللساني العربي الحديث ومنهج الدراسة من الإشكالات التي تقاسمتها الآراء حول موضوع الدراسة ومنهجه، بل حول وجود مصطلح اللسانيات العربية الحديثة من عدمه، ولعل السبب في ذلك هو انقسام الآراء إلى رأيين رأي قائل بوجود لسانيات عربية ورأي ينفي وجودها في الساحة اللسانية الحديثة. أما القائلون بوجودها أقحموا التراث في دراساتهم واتخذوه مطية لهم. وأما القائلون بعدمها فلأنهم وجدوا أن الدراسات الموجودة اليوم نابعة عن فكر غربي تبنته الدراسات اللسانية العربية وأسقطتها على الفكر العربي فكان نتاج هذا الصراع ظهور ثلاث اتجاهات حملت مفاهيمها من طبيعة دراستها، وهي: اللسانيات التمهيدية ، ولسانيات الترجمة ولسانيات التراث.

وفي هذه الورقة البحثية أردت أن أقف على هذه الإشكالات المطروحة في طريق البحث اللساني العربي ومحاولة الوصول إلى بعض النتائج الخادمة.

الكلمات المفتاحية: اللسانيات العربية الحديثة؛ التراث؛ الترجمة؛ الشمولية؛ قراءة التراث.

Abstract:
The problem of the subject of modern Arabic linguistic research and the methodology of the study is one of the problems shared by the opinions on the subject of the study and its methodology But about the existence of the term modern Arabic linguistics or not, and perhaps the reason for this is the division of opinions to two views of the existence of Arab linguistics and opinion denies its presence in the arena of modern language

Those who say that they exist inscribed the heritage in their studies and took it as a ride for them. As for those who say that it is not because they found that the studies that exist today stem from a Western thought adopted by the Arabic linguistic studies and dropped it on the Arab thought, the result of this conflict was the emergence of three trends that carried their concepts from the nature of their study: introductory linguistics, translation languages and heritage languages.

Key words:; heritage ; translation ; comprehensiveness ; heritage reading ; modern Arabic linguistics

البحث:

1–مقدمة:

كثيرا ما تحدث الباحثون في مجال اللسانيات عن اللسانيات العربية، وإشكالية وجودها في الواقع اللساني العربي الحديث، ولعل الدافع الذي فتح المجال للاختلاف هو إشكالية موضوع البحث اللساني العربي ومنهجه، إذ كثيرا ما نقرأ عناوين لمؤلفات، وأبحاث موسومة بـ (اللسانيات العربية الحديثة، اللسانيات العربية ، اللسانيات العربية المعاصرة، نحو لسانيات عربية حديثة....) ، وغيرها من العناوين التي لا تعبر عن أصل محتواها، إذ بمجرد تصفح محتويات هذه المؤلفات، نجد أنفسنا أمام مضمونين، إما بحث لساني غربي بلغة عربية، أو بحث لساني إسقاطي للمناهج الغربية على الموروث العربي.تمازج فيه الدرس اللغوي العربي القديم بالمنهج اللساني الغربي ، فنتج عن التمازج الوصفية العربية والوظيفية العربية والتوليدية التحويلية العربية ، وغيرها من المسميات. وأما التي انفردت بالموضوع وفق المناهج الغربية بمنهجها ومضامينها، فكان

الحديث فيها عن اللسانيات الغربية وكيف وصلت للعالم العربي من بعد الثورة الفرنسية[1] فلا الأولى مثلت اللسانيات العربية ولا الثانية خدمتها، وهذا الذي دفع الكثير من الباحثين العرب قبل غيرهم للتشكيك في وجود مضامين حقيقية لمصطلح اللسانيات العربية الحديثة.

إنّ ضبط موضوع الدراسة ومنهجها هو الذي يحدد حدود أي بحث أو علم، وعدم ضبط حدود اللسانيات العربية ماذا تدرس وبأي منهج نَدرسها هو الذي جعل من فجوة الهوة تزداد انفتاحا على الطرفين على حد سواء بحكم الصراع الموجود بينهما فيمن يحاول فرض أصحية أفكاره في الواقع اللساني اليوم، ولعل الإشكال يزول في محاولة الجمع بين أفكار المتناقضين، وهو قراءة التراث بحلة جديدة، وهي الفكرة التي طرحها من صنفوا أعمالهم ضمن مصطلح (لسانيات التراث)، فإلى أي مدى يمكن استثمار الموروث اللساني العربي في الدرس اللساني العربي الحديث للنهوض به؟ وهل إذا أخذنا بالتراث اعتبرنا الدرس الجامع للقديم مع الحديث لسانيات عربية حديثة؟

2-حدود الدرس اللساني العربي الحديث:

لعل الحديث عن حدود الدرس اللساني العربي الحديث، هو بحث في زمانية هذا الدرس المنبعث من الدرس اللساني الغربي مع حملة بونابرت نابليون (الثورة الفرنسية)، والذي حاول من خلالها بعث الروح القومية في الفكر العربي بعد الهيمنة التركية،

1ينظر في هذا الموضوع ما كتبه حافظ اسماعيل عليوي، في كتابه اللسانيات في الثقافة العربية المعاصرة – دراسة تحليلية نقدية في قضايا التلقي وإشكالاته- دار الكتاب الجديد المتحدة، ط1 ، 2009.

فكانت فكرة نابليون إعادة هيكلة العقلية العربية من عقلية هيمنت عليها الثقافة التركية مع السيطرة العثمانية، إلى عقلية ظاهرها يتحدث عن تحرر عربي مصري، وباطنها ينبئ عن تبني أفكار غربية دخيلة على مجتمع سيطر عليه فكران؛ فكر يحمل مخلفات استعمارية ، وفكر ناتج عن ثقافة كُتابية (الكتاتيب)، وانطلاقا من مقولة (المغلوب مولع بالغالب) انفتحت الأبواب والنوافذ على الفكر النابليوني، وكانت الانطلاقة من المناهج الغربية على يد المستشرقين.

إنّ محاولة الوقوف على آليات دخول الفكر اللساني الغربي للوطن العربي مع الثورة الفرنسية يمكن أن يلخص في ثلاث مراحل:

1- مرحلة بعث القومية العربية والتأكيد على ضرورة الرجوع للموروث اللغوي العربي.

2- مرحلة التشكيك في الواقع اللساني العربي في تلك الفترة، ووصفه بالفاشل وغير المثمر والانطلاقة كانت من المناهج التعلمية والمعاجم اللغوية؛

3- مرحلة الاستعانة بالمستشرقين ليليها بعث البعثات الطلابية إلى الخارج.

إنّ أهم فكرة انطلق منها المستعمر لتعزيز هذه الآليات هي فكرة (المناهج) لما لها من أهمية في تغيير المسار التفكيري للمفكر العربي عامة، وتمثل حلقة الانفلات من المناهج القديمة التي عرفت عند علمائنا الأوائل والتشبث بالمناهج الحديثة المنقولة عن الفكر الغربي، والتي استغنى عنها المفكر الغربي في تلك الفترة وهما المنهج التاريخي ، والمنهج المقارن، في حين المفكر العربي اعتبرها بداية ملامح التحديث (الحداثة) اللغوي في الوطن العربي، والتي كانت مع «انتداب مجموعة من المستشرقين للتدريس في الجامعة المصرية 1907 أمثال برجستراسر وجويدي وليتمان وغيرهم... فكانت

الفرصة مواتية بشكل أكبر للاطلاع على مبادئ علم اللغة في مفهومه الجديد»[1] والانطلاقة في الدرس العربي كانت من الدرس النحوي بحكم أنه البوابة التي نلج منها عالم اللغة العربية فتعالت الصيحات حول إعادة النظر في الدرس النحوي من حيث تأليفه وتدريسه على شاكلة ما ورد عند الطهطاوي الذي ألف كتابا في النحو خرج فيه عن كل المبادئ الأزهرية واتبع فيه « نمط مؤلفات الفرنسيين في النحو التي أعجب بها إعجابا أثناء بعثته إلى فرنسا فخرج فيه عن طريقة معاصريه من علماء الأزهر في الشروح والحواشي، والتعليقات والتقريرات فجاء كتابه بسيط العبارة سهل العرض ليس له متن أو شرح كما استخدم لأول مرة الجداول الإيضاحية»[2]. وتوالت الأفكار بعد الطهطاوي مع المرصفي وابراهيم مصطفى وغيرها من المحاولات التبسيطية للنحو العربي، وتعززت هذه الأفكار التمهيدية بأفكار المستشرق برجستراسر في كتابه التطور النحوي للغة العربية المجموع فيه محاضرات تمهيدية لتلقي المناهج الغربية، يقول: «والنظر إلى اللسان العربي من وجهة تاريخية له فائدتان أولهما واضحة وهي إكمال معرفة اللغة العربية وشؤونها، والأخرى هي التوصل إلى معرفة طرائق علم اللغة الغربي على العموم بأسهل وجه:و ذلك أنّ علم اللغة الغربي له طرقات السؤال والبرهان بعيدا عن تعليم اللغات العادي في المدارس لا يسهل تفهم مقاصدها والنفور على استعمالها »[3].

إنّ ما ورد في هذا القول دعوة صريحة لتبني المنهج التاريخي والمقارن في الدرس اللغوي العربي مشيرا صاحبه « إلى أنّ ثمة أكثر من وجهة نظر لدراسة اللغة العربية،

1 حافظ اسماعيل علیوي، المرجع نفسه، ص 32.

2 حلمي خليل ، العربية وعلم اللغة البنوي، دراسة في الفكر اللغوي العربي الحديث، دار المعرفة الجامعية ، 2010، (د ر) ، ص 60/59.

3 رمضان عبد التواب، التطور النحوي للغة العربية، سلسلة محاضرات ألقاها في الجامعة المصرية برجستراسر ، مكتبة الخانجي مصر، ط02، 1994، ص 08.

وهي الوجهة التاريخية والوجهة التاريخية المقارنة، والوجهة النظامية، وقد ارتبطت الوجهة الأولى والثانية بعلم اللغة التاريخي ....أما الوجهة النظامية المشار إليها فهي التي سترتبط بالمنهج الوصفي أو البنوي كما نصطلح عليه اليوم»[1].

هذه الأفكار وغيرها مثلت ملامح التفكير النهضوي في اللغة العربية والتي اعتمد عليها المفكرون العرب لإعادة جدولة الفكر اللغوي العربي، من خلال تجسيد المناهج الغربية (التاريخية والمقارنة) في مؤلفاتهم قبل الوصفية أمثال اليازجي وجرجي زيدان... فكانت هذه الأفكار بداية التعديلات التي فرضتها الثورة الفرنسية، وكان بذلك منشأ الفكر الغربي القائم في ظاهره على مفهوم القومية العربية لكن الوجه الخفي هو « تحديث الفكر العربي من خلال وصله بالحضارة الحديثة، وإخراجه من عزلته»[2] ، وتعزز ذلك بالمنهج الوصفي الذي توافق دخوله إلى الوطن العربي مع دراسات فيرث على إثر البعثات الطلابية التي سافرت للتكوين في الخارج، والحدود الزمنية تبين أنّ المشهد اللساني الغربي لم يكتمل بعد، فالمسافة الزمنية بين فيرث ودي سوسير ليست بالبعيدة مما يدل على أنّ الطلبة العرب أخذوا الدرس اللساني الغربي في عهده الأول، وأدخلوه للوطن العربي.

إنّ الرسائل التي حملتها البعثات الطلابية هي أكثر قوة ، وتأثيرا من الرسائل التي دخل بها المستشرقون بحكم أنّ المستشرقين حملوا فكرا ونشروه في حين أنّ طلبتهم العرب حملوا فكرا وطبقوه ونتج عن تطبيقهم له ما يسمى بالكتابة اللسانية العربية الحديثة بناء على المناهج الغربية ، فكان أن عرف الواقع اللساني العربي ثلاث تيارات

1 رمضان عبد التواب،المرجع نفسه، ص 8/7 .

2 حافظ اسماعيل علويوي، المرجع نفسه، ص 42 .

من الكتابات اللسانية العربية وهي: اللسانيات التمهيدية، لسانيات التراث، ولسانيات الترجمة.

3-الكتابة اللسانية العربية الحديثة:

لعل الوقوف على الكتابات اللسانية العربية يأخذ مفاهيم مختلفة من باحث لآخر باعتبار مجالات الكتابة، فالكتابة اللسانية التمهيدية وإن وجهت للقارئ العربي إلا أنها لا تمثل الكتابة اللسانية العربية ، وإنما هي مفاهيم غربية مقدمة للقارئ العربي لمن أراد معرفة علوم اللسان، أو اللسانيات بشكل عام وهي مؤلفات تحوي أوليات الدرس اللساني الغربي من قبل الوصفية إلى تحويلية تشومسكي، وقد امتاز بعضها بالمحافظة على الأمثلة الغربية دون العربية ، ومن هذه الدراسات مبادئ اللسانيات البنوية للطيب دبة، وعلم اللغة لـ علي عبد الواحد وافي، علم اللغة مقدمة للقارئ العربي محمود السعران، مبادئ اللسانيات لأحمد محمد قدور، مبادئ اللسانيات لخولة طالب الإبراهيمي والقائمة طويلة للمؤلفات التي نقلت الفكر اللساني الغربي إلى الوطن العربي، فكانت السبيل الذي سلكته اللسانيات السوسيرية وما بعدها للوصول إلى المفكر العربي.

أما لسانيات الترجمة فلا تطرح إشكالا أيضا أو عقبة أمام الدرس اللساني من حيث المفهوم بحكم أنّ الكتابة اللسانية المترجمة هي ترجمة لأعمال الغربيين مقَدمة للقارئ العربي الذي لم يتمكن من قراءة اللسانيات الغربية بلغتها الأصلية على شاكلة محاضرات في الألسنية العامة ترجمة يوسف غازي ومجيد النصر، و دروس في الألسنية العامة تعريب صالح القرمادي، وكتاب علم اللغة العام ترجمة يوئيل يوسف عزيز ومحاضرات في علم اللسان العام ترجمة عبد القادر القنيني، وغيرها من الترجمات

والتعريبات التي اتسمت ببعض التعقيدات كإشكالية المصطلحات المختلفة في المفهوم اللساني الواحد.

إنّ هذين النوعين من الكتابة اللسانية لا يرتقيان بالدرس اللساني العربي لمستوى يحق لنا فيه التحدث عن لسانيات عربية، فهما منهجان أو طريقان تعليميان تتم بهما المعرفة اللسانية الغربية في الوطن العربي، وهذا ما جعل الحديث عن اللسانيات العربية في الوطن العربي يطرح تساؤلات في عملية التلقي عند الباحث العربي وكيف تلقى هذه المفاهيم الغربية سواء عن طريق اللسانيات التمهيدية أو اللسانيات المترجمة للسان العربي. وهذا الإشكال الذي انطلق منه مصطفى غلفان في تحليل البعد اللساني في الدرس اللغوي العربي وهو:[1]

- كيف وعى اللغويون العرب المحدثون مبادئ اللسانيات العامة وفرضياتها ونماذجها النظرية؟
- كيف تمّ توظيف كل هذه الأمور، وتعيينها في دراسة مختلف جوانب اللغة العربية؟

لعل الإجابة عن هذه التساؤلات، وغيرها تحدد مفهوم اللسانيات العربية الحديثة وإلى ما وصل إليه الباحث العربي اليوم في وضع حدود الدرس اللساني العربي الحديث، ولَماَ نتحدث عن البعد المعرفي اللساني العربي في الوقت الراهن يستوجب علينا الوقوف عند مستويات اللغة العربية مرتبطة أساسا ببعدها الحضاري والتراثي الذي انطلق منه أصحاب فكرة اللسانيات التراثية.

1 ينظر مصطفى غلفان، اللسانيات العربية الحديثة، دراسة نقدية في المصادر والأسس النظرية والمنهجية، سلسلة رسائل وأطروحات ، جامعة الحسن الثاني عين الشق المغرب، (در) (دت)، ص 11.

4-المناهج اللسانية الحديثة وقراءة التراث:

إنّ الحديث عن كيفية وعي الباحث العربي اللسانيات الغربية هو حديث عن آليات تلقي الدارس العربي للدرس اللساني الغربي، ولعل التقسيمات المعروفة في اللسانيات العربية إلى لسانيات تمهيدية ولسانيات ترجمة ولسانيات تراثية تبين الآليات والمقاربات التي ساهمت في تلقي الدرس الغربي، فعملية التلقي لم تلق إشكالا – كما ورد سلفا – في اللسانيات التمهيدية أو لسانيات الترجمة بحكم أنّ كليهما يندرج في إطار تعلمي تحصيلي، وهي مرحلة التقاء القارئ العربي بهذه المفاهيم الغربية وقبوله لها أو رفضه للفكرة أصلا. أما إشكالات التلقي فتظهر أساسا في لسانيات التراث، وهي الآلية التي أراد من خلالها القابلون للفكر اللساني الغربي وضع مقاربة لسانية بين الحديث والقديم حتى لا يبقى القبول مجرد مسلمات وفقط.

تمثل لسانيات التراث منعطف تلاقي الأنا بالآخر، ومحاولة فهم الآخر بالعودة للأنا أو العكس. فالإشكال المطروح لدى الباحثين وهو كيفية تلقي الباحث العربي اللسانيات الغربية لا يتمثل أو يظهر في اللسانيات التمهيدية التي هي مفاهيم تعريفية للدرس الغربي ولا في لسانيات الترجمة، وهي الناقلة للدرس اللساني الغربي بلغة عربية سواء عبر آلية الترجمة أم التعريب.

إنّ عملية التلقي تتجسد أساسا في المقاربة التي قام بها **إبراهيم أنيس**[1] في مؤلفاته (**الأصوات اللغوية/ دلالة الألفاظ/ اللهجات العربية**) إذ درس اللغة العربية من زاوية المفاهيم اللسانية الأوروبية الوصفية والتاريخية فيما تعلق بالمستويات اللغوية.

1 ينظر نعمان بوقرة، الكتابة اللسانية العربية من الرؤية الغربية إلى التأصيل الإسلامي للمنهج، قراءة وصفية في صور التلقي، ونماذج الصياغة، مجلة الدراسات اللغوية والأدبية ماليزيا، 2009،ع01، ج1 ، ص 03.

ودراسة **كمال بشر** في كتابه (**دراسات في علم اللغة**) و« الذي خصصه للبحث في التفكير اللغوي عند العرب في ضوء اللسانيات»[1] ومحاولات **عبد الرحمان أيوب** في كتابه (**دراسات نقدية في النحو العربي**) و**تمام حسان** في كتابه (**اللغة بين المعيارية والوصفية**) وكتابه الآخر (**مناهج البحث في اللغة**)، وغيرهم من المشارقة الذين مثّلوا مرحلة امتداد لأفكار الثورة الفرنسية وأفكار المستشرقين ممن التحقوا بمصر ونقلوا الفكر الغربي إلى الوطن العربي وعلى رأسهم برجستراسر الذي نقل المناهج إلى الوطن العربي عامة والانطلاقة كانت من مصر، إضافة للبعثات الطلابية والتي تزامنت مع فيرث مما يوحي على قرب الفترة الزمنية من الدراسات الوصفية السوسيرية.

ويتجلى الدرس اللساني العربي في المغرب العربي مع **المتوكل** في كتاباته المختلفة المتسلسلة[2] وهو الذي شغل الساحة اللسانية بمجموع مفاهيم حديثة قد تبدو غريبة للوهلة الأولى، إضافة **لأحمد مختار عمر** الذي نقل لنا الفكر اللساني الغربي فيما تعلق بالمستوى الدلالي، ويعد كتابه (**علم الدلالة**) عمدة المؤلفات العربية الحاملة للفكر الغربي، **وعبد السلام المسدي** في مؤلفاته المختلفة منها (**التفكير اللساني في الحضارة العربية**) و(**اللسانيات وأسسها المعرفية**) و كتاب (**قضية البنوية**) وغيرها من المؤلفات التي حاولت الجمع بين الفكر الغربي والفكر العربي القديم. ولعل أهم دراسة لفتت القارئ العربي منذ السبعينيات هي دراسة عبد الرحمان الحاج صالح المنبنية أساسا على« المنحى التجديدي ... في ضوء ما اكتشفه من رؤى ثابتة للنحاة العرب في المسألة اللغوية بعد قراءة مستفيضة في نصوص سيبويه والجرجاني والرضي

1 نعمان بوقرة ، المرجع نفسه، ص4.

2 ما عرف عن المتوكل في كتاباته أنه إذا تطرق لفكرة في كتابه النحو الوظيفي مثلا لا يرجع للحديث عنها في مؤلفاته الاخرى ولو ربط بفكرته الأولى إلا أنه لا يعيد ذكرها وهذا ما أعطى مفهوم التسلسل في كتاباته.

الاستراباذي وابن جني على وجه الخصوص محاولا صياغة هذه الرؤى في نظرية نسبها إلى الخليل بن أحمد الفراهيدي عرفت في الفكر اللغوي العربي باسم: النظرية الخليلية الحديثة»[1]

إضافة لمؤلفاته الأخرى التي تحدث فيها عن النظريات الغربية.

لقد أدرك هؤلاء وغيرهم ممن لم نذكرهم أنّ اللسانيات الغربية لا يطول عمرها في الوطن العربي إن لم تقارب مع الموروث العربي الشاسع، ولما أقول لا يطول عمرها ليس من منطلق الفكرة الخلدونية (المغلوب مولع بالغالب) ، إنما بالنظر إليها على أنها مناهج عالمية فرضت نفسها في الواقع اللساني، والمقاربات التي قام بها العلماء العرب، والباحثون في هذا المجال ممن ذكرتهم سلفا هي التي انتجت لنا لسانيات وصفية عربية ولسانيات وظيفية عربية ولسانيات توليدية تحويلية عربية، ولا يمكن للسانيات الترجمة أو اللسانيات التمهيدية أن تنتج هذه المفاهيم الناتجة عن مقاربة حديثة مما يرفضه قانون الكينونة وسنة التماشي والواقع اللساني الحديث، يقول عبد الرحمان الحاج صالح في هذا السياق «...هذا وأردنا أن لا تكون دراستنا للجانب الأهم من هذا التراث، وهو الأصول العلمية التي امتازت بها علوم اللسان عند العرب عن غيرها مقطوعة الصلة عما ظهر في زماننا من النظريات العلمية في العلوم اللسانية...فحاولنا القيام بمقارنة بين ما قاله العلماء العرب القدامى وما قاموا به من بحوث وما توصلوا إليه من أفكار، ومناهج التحليل وما يقوله العلماء المحدثون في مختلف نظرياتهم ومذاهبهم كالبنوية المعاصرة الأوروبية منها والأمريكية وكالنحو

1 نعمان بوقرة ، المرجع نفسه، ص17.

التوليدي التحويلي، ونظرية الخطاب وغيرها»[1]. هذه الفكرة التي طرحها عبد الرحمان الحاج صالح والتي قال بها الكثيرون قبله شكلت نقطة مفارقة بين تيارين أحدهما يدعوا لإبعاد التراث عن أي فكر دخيل فهو متعلق بزمانه ومكانه وأشخاصه منطلقين من فكرة (ما ترك الأول للآخر شيئا) وأنّ الفكر اللغوي العربي خصوصياته تجعله في غنى عن كل هذه المفاهيم الغربية الحديثة وهي فكرة خاطئة في مجال العلم.

أما التيار الثاني فهو التيار الرافض للتراث مطلقا ومتشبث بالحداثة وبالمناهج الغربية دون مقاربة أو إسقاط، إنما ندرس المناهج الغربية في معزل عن التراث اللغوي العربي، وهذا التيار يحمل فكرتين:

- فكرة لحداثيين يرفضون كل ما هو تراثي؛
- فكرة لحداثيين يرفضون إسقاط المناهج الغربية على التراث من رؤية تحمل غيرة على التراث اللغوي العربي وإنّ ما كتبه ابن جني أو الجرجاني أو غيرهما فهو مكتوب في زمانه وبمنهج زمانه بما تسنى لهم، ولكن ما غاب عن هؤلاء وغيرهم أن التراث وإن كتب في زمانه وبمنهج زمانه لم يكتب فقط لزمانه وإنما يحمل فكرا يتدارس اليوم وسيتدارس غدا لما يحمله من مفاهيم وخصائص خارجة عن مفهوم الزمكنة.

5-التراث اللغوي العربي القديم، وآليات القراءة الحديثة:

إنّ إعادة النظر في الموروث اللغوي القديم، ومحاولة قراءته أمر مشروع، بل الأصل أنّ أي باحث لساني عربي حديث يجب عليه ربط العلاقة بتراثه، بحكم انه مفتاح الطريق لفكر ورد حاملا لمجموع خصائص امتازت بها اللغة العربية في تأليفات عدة

1 عبد الرحمان الحاج صالح، السماع اللغوي العلمي عند العرب ومفهوم الفصاحة، موفم للنشر الجزائر، 2007 (د ر)،ص 7-8.

منها ما كانت شاملة لمجموع أفكار، ومنها ما ورد شرحا أوتعليقا أو تلخيصا. وليس عيبا أن نتحدث اليوم عن كيفية قراءة التراث، والآليات الواجب اتباعها للوصول إلى فك رموز كمّ هائل من المعارف ألفها أصحابها لزمانهم ولغير زمانهم، وفي قولي لغير زمانهم حتى أُبعد الفكرة الزمانية المتعلقة بإشكالية البحث اللساني في الثقافة العربية الحديثة والزمن.

قد يكون حكما مسبقا قولي أنّ ما يحمله التراث اللساني العربي من افكار هي أوسع وأكثر من أن تقيد بقرون أولى أو ببعد ثقافي أو فكري، ولعل العملية الإسقاطية التي سبق الحديث عنها هي إثباتية لذات المفكر العربي أكثر منها انصياعا وراء التيار الغربي كما يعتقد بعضهم إذ« أصبحت قراءة التراث اللغوي بالنسبة للغويين العرب المعاصرين تأسيسا للمستقبل على أصول الماضي، وإبرازا لنصيب حضارتهم في إثراء الفكر اللغوي الحديث»[1] وليس بالضرورة أن تكون القراءة إسقاطية إنما هي استثمار لمناهج عالمية مفروضة في الساحة اللسانية اليوم، ومحاولة تبسيط المفاهيم للقارئ العربي اليوم، فالقارئ المعاصر بين سندان صعوبة التراث وتعقيده وشموليته، ومطرقة المعاصرة والمناهج االمبسطة.

ولعل الحقيقة المفروضة علينا اليوم ونحن العرب لا ننتج فكرا عربيا خالصا، جعلنا أمام مسلكين لا ثالث لهما يتمثل إما:

- الانصياع وراء الغرب لما يحمله من أفكار صارت عالمية؛

1 محمد بوعمامة ، التراث اللغوي العربي بين سندان الأصالة ومطرقة المعاصرة، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية ، ع 3/2 ، جانفي 2008، جامعة بسكرة الجزائر، ص 209.

– أو محاولة بعث مادة تراثنا في حلة جديدة، وبقراءة تزيل من الأذهان أنها إسقاط تام للأفكار الغربية . وقولي أمام حقيقة مفروضة، بحكم أنّ كل الدراسات الموجودة في هذا العصر إما تابعة منغمسة ناكرة أو مسقطة محاولة إثبات الذات وكل هذه الأفكار انطلقت من مفارقات ومغالطات إيديولوجية وابستمولوجية .

إنّ القارئ العربي اليوم يعاني من الكم الهائل للموروث العربي، وهو يعيش صراعا فكريا في محاولة الكشف عن هذا الموروث وعدمه، فإذا حاول الكشف عنه تجده يلج بحرا بل محيطا قد يغرق فيه ان لم يتقن السباحة، وأنّ الابتعاد عنه يجعل القارئ العربي جسدا بلا روح ومنه يسكن لما هو أسهل في زماننا وهي المناهج اللسانية الغربية، فيكون أمام فكرتين خاطئتين بحكم أن أصل الفكرة إيديولوجي، والأصل في رأيي أن يتجاوز « الباحث العربي المعاصر عبور الزمان للنشر عن العرب الأقدمين، وعبور المكان للنقل عن الغربيين، وذلك بمحاورة التفكير اللساني العربي القديم والبحث اللساني المعاصر...»[1] وبذلك الخروج من حلبة الصراع إما مثبتا أو ناقلا.

لعل أول فكرة تستوجبها عملية المحاورة هوإعادة النظر في مفهوم شمولية التراث اللغوي العربي، ومحاولة فك الصراع بين الأنا والآخر.

6–الموروث اللساني العربي القديم ومفهوم الشمولية:

إنّ ظاهرة المد والجزر التي عرفها الدرس اللساني العربي الحديث بين رافض لفكرة الإسقاط وقابل لها جعلت كلّ فئة تبحث عمّا يدعم موقفها، ويتخذ من الأفكار المطروحة لدى علمائنا الأوائل أساسا يعتمد عليها في الطرح، ومن بين هذه الأسس

1 محمد بوعمامة، المرجع نفسه، ص 210.

الشمولية والانفراد. والمعروف في الدراسات اللسانية العربية القديمة أنها اتسمت بصفة الشمولية في أول عهدها ولم تتسم بخصوصية الموضوع إذ كانت جامعة لمجموع مواضيع في مؤلف واحد مما يفسر علاقة الترابط في منطلقات التفكير اللساني العربي القديم فمثلا الخليل بن أحمد الفراهيدي وإن ارتبط اسمه بعلم العروض إلا أنه كان جامعا في تأليفاته لمجموع علوم لغوية مختلفة شاملة لمستويات اللغة، وإذا وقفنا على كتاب الخصائص لابن جني فإنه كان جامعا لخصائص اللغة العربية، وجامعا لكل المستويات اللغوية في مؤلف واحد، وقس عليهما كل من جاء في البدايات الأولى للتأليف، ويمكن أن نطلق على هذه المرحلة بالمرحلة الاجتهادية التعريفية، وهذا الاجتهاد مع التعريف بالدراسات اللغوية ومستويات الدراسة اللسانية هو الذي جعل العلماء ينهجون منهج الشمولية في التأليف إلى بدايات القرن الرابع وهي المرحلة التخصيصة في التأليف فظهر علم النحو وعلم البلاغة وعلم العروض وعلم الأصوات وغيرها من المباحث اللغوية التي عرفها العرب وكان الجرجاني مفتاح الدراسات الانفرادية، وتلت هذه المرحلة مرحلة التلخيصات وتلخيص التلخيصات والشروحات والتعليقات... واتسمت الكتابة اللسانية «بتصنيف علوم اللغة وتبويب محاورها... فكان من ذلك التراث اللغوي العربي في النحو والصرف والأصوات والبلاغة والعروض »[1]. ولعل هذا التنوع المرحلي في التأليف جعل من مبدإ الشمولية في بداياته الأولى مبدأ وضع القاعدة اللسانية بما تحمله من أفكار مختلفة وعلاقة هذه الأفكار بالعلوم التي تمازجت معها، وهذا ما يسوقنا للإقرار أنّ الظاهرة اللغوية في الدرس اللساني العربي القديم اتسمت بصفة تمازج الاختصاصات الناتج عن شمولية القراءة والتأليف فكان أن تمازج النحو مع البلاغة وأصول الفقه مع أصول النحو والتأليف المعجمي مع علم الصرف

1 عبد السلام المسدي، التفكير اللساني في الحضارة العربية، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط3 ، 2009، ص 36 بتصرف .

والتمازج الحاصل بين أصول النحو وأصول الفقه وعلم الكلام والمنطق وغيرها من العلوم المختلفة، وهذا التمازج كان نتاج انفرادية الدرس الشمولي، وهذا ما جعل الدرس الانفرادي والدرس المتمازج لا يطرح إشكالا في الدرس اللساني العربي الحديث، كما طرح على مستوى الدراسات الشاملة بحكم أنّ «تمازج الاختصاص يعد أساً من أسس البحث الحديث ولقد سنت اللسانيات شريعته لما تتبعت الظاهرة اللغوية حيثما كانت حتى ولجت حقولا مغايرة لها...»[1] وفي ذلك توسعة للدرس اللساني الحديث، إذ لم يعد مقتصرا على مستوى واحد أو حقل معرفي واحد إنما تمازجت العلوم فيما بينها وكونت علم النفس اللغوي وعلم الاجتماع اللغوي وغيرها من العلوم المشتركة.

إنّ الذي دفعني للحديث عن مبدإ الشمولية والانفراد وتمازج العلوم هو القدح الحاصل على الدراسات العربية الحديثة في العملية الإسقاطية، والتي ينظر لها من زاوية ضيقة، إذ ليس كل ما يُسَقَّط دلالة على التميع وإخراج الموروث اللساني العربي من أصالته، بل العكس إذ كثير من الإسقاطات هي التي عرّفت بالدرس اللساني العربي القديم للقارئ العربي اليوم. ولعل ما يجول في خاطري أننا في كل العلوم نتبع الغرب لا لأنه الغرب من زاوية النظرة الدونية إنما لأنهم أسسوا مناهج استطاعوا من خلالها لفت أنظار العالم لها، كما كان في زمن مضى مع الحضارة الإسلامية، فالأصل أن نتواصل مع ماهو موجود. ولا يحق لنا أن نقدح في كل الدراسات التي عرفها الدرس اللساني العربي الحديث من علي عبد الواحد وافي إلى مازن الوعر مرورا بدراسات المتوكل وعبد الرحمان الحاج صالح ونقول هذا ظلم للغة العربية وهذا لا يليق بدراسات تناولت دراسا لغويا أُلِّف للقرن الثاني الهجري أو القرن الثالث أو القرن الرابع فنرد على المتوكل

1 عبد السلام المسدي، المرجع نفسه، ص 19.

نحوه الوظيفي وعلى عبد الرحمان الحاج صالح نظريته الخليلية وقس على ذلك كل الدراسات لا أقول الإسقاطية إنما التي استعانت بالدرس الغربي لأجل تبسيط المفاهيم التي قال عنها بعضهم انها كتبها أصحابها لزمانهم إلا أن العلم لا زمان له ولا مكان يحده.

أما الذين تساءلوا عن الخصوصية الحضارية للتراث اللساني العربي وقالوا « فهل من المعقول أن يكون النحو العربي بنويا وتوليديا ووظيفيا في أسسه النظرية والمنهجية ؟»[1] وكيف يمكن للجرجاني أن يكون وظيفيا وتوليديا تحويليا وغيرها من الأصوات التي تعالت- وقد أكون مخطئا إن قلت لأجل الدفاع عن الموروث اللساني العربي القديم- لأقول أن هذا الذي ندعيه أنه مغالطة ابستيمولوجية، وتحوير منهجي هو في الأصل ثراء عرف به الموروث اللساني العربي في شموليته ولم تكن الشمولية وصمة عار على الدرس اللساني القديم، إذ كل قارئ لكتاب سيبوية يدرك ذلك من انطلاقه في كتابه من التركيب لإدراكه قبل تشومسكي أن اللغة لا يتم التواصل بها لا بالأصوات ولا بالكلمات إنما بجمل مفيدة، والقارئ لهذا الكتاب يدرك لم أخر سيبويه المستوى الصوتي وجعله مقدمة باب الإدغام، وقس على ذلك ما ورد عند الجرجاني والجاحظ والقائمة طويلة لأعلام لانزال نستثمر أفكارهم لا أقول لزماننا بل لزمان من سيأتي بعدنا لأننا وبكل بساطة عاطلون عن التأليف اللساني في معزل عن الدرس الغربي، فلا سبيل لدينا سوى سبيلين اثنين إما ان نتدارس الموروث كموروث ونبقى ننظر إليه من زاوية التقديس، وندرس الدرس الغربي كدرس أجنبي وتبقى إشكالية الأنا والآخر

1 حافظ اسماعيل عليوي، اللسانيات العربية الحديثة، نحو مقاربة إبستمولوجية، ص 1

https://boudramazaidi.biogspot.com/2016/02/Allsaniyat-Arabic-surgery-Nho-approach

مطروحة في كل دراساتنا أو أننا ننهج السبيل الثاني الذي نحاول فيه إثبات وجودنا من أن ما هو موجود الآن كان سابقا لكن بمنهج آخر، ولعل هذه المقاربات والإسقاطات هي التي جعلت المكتبة العربية تثمر عن مجموع تآليف من الثورة الفرنسية إلى يومنا هذا.

7–خاتمة

آخر ما يمكن أن أختم به كلامي في هذه الفكرة المطروحة هو تساؤل لم أجد له جوابا وهو : هل يمكن أن ندرس اللغة العربية اليوم في معزل عن الدرس اللساني الغربي الحديث؟ وهل يمكن أن نجد في الساحة اللسانية مؤلفا واحد لم يتطرق للدرس اللساني الغربي في محاولة منه لتقريب المفاهيم أو المقارنة أو الإنكار...

إنّ الحقيقة المفروضة علينا اليوم ونحن في آخر الركب هو مسايرة المفاهيم العلمية والمناهج البارزة، ومحاولة « استثمار الباحثين العرب المعاصرين لمناهج النظر اللغوي الحديث، وإسقاط صرامتها المعرفية ودقتها المصطلحية على التراث، وذلك بغرض فهم الفكر العربي القديم، وإعادة بنائه على أسس قويمة »[1] ومحاولة فك أواصر الصراع بين الأنا والآخر، وإزالة الحدود دون فقد للخصوصيات التي امتاز بها الدرس اللساني العربي.

وختاما لا يحق لنا الحديث عن الدرس اللساني العربي الحديث ، أو اللسانيات العربية الحديثة إن أقصينا الاسقاطات التي قام بها العلماء العرب في مقارباتهم، وإلا سنبقى حبيسي فكر غربي منقول بمنهجين لسانيين غربيين وهو ما يعرف باللسانيات

1 محمد بوعمامة، المرجع نفسه، ص 217.

التمهيدية أو لسانيات الترجمة، أو حبيسي الفكر الموروثي التقديسي للتراث، وبذلك لا يحق لنا أصلا الحديث عن مصطلح اللسانيات العربية الحديثة، أو ما يسمى بالدرس اللساني العربي الحديث.